رواية تنكرد

للوزير الشهير الفورد بكسفيلد

القسم الرابع

الفصل الاول

لما دخل فخر الدين قصره ومشى بين رجاله استعزّ بما لقيهُ من التبجيل وجعل يعامل قومهُ بالدعة والاكرام لكي تبقى القلوب معقودة على حبهِ فاتسعت ولائمهُ وكثر ضيوفهُ من الامراء والمشايخ وسُرَّ تنكرد بما رأى وسمع وفعل بهِ هواه لبنان فعل الدواء فشفى جرحهُ وطيب نفسهُ. وكثر تحدُّث الناس عنهُ وتسابقهم الى اكرامهِ وكانوا يذاكرونهُ سِرًّا في امر الثورة ونتائجها وما يُفرَض منها على كل واحد منهم

واراد فخر الدين ان يجمع كلَّ امراء الجبل ومشايخهِ من الدروز والموارنة في قصرهِ لكي يصلح بينهم ويريهم منزلتهُ عند الدولة الانكليزية مدَّعيًا انها علمت شأن العمل الذي هو عازم عليهِ فلم تأتمن قنصلاً عاديًّا تبعث بهِ اليهِ بل بعثت اليهِ باحد امرائها ممثلاً لعظمة تلك المملكة وفخامها

وذاع هذا الخبر في الجبل على غير علم من تنكرد وصدَّقهُ بيت الخازن وبيت الدحداح وبيت حبيش وبيت حيدر من الموارنة وبيت جنبلاط وبيت تلحوق وبيت ابي نكد من الدروز وقالوا كلهم ان اخا الملكة نزل ضيفًا على الامير فخر الدين . وكان الخلاف شديدًا بين الامير احمد ارسلان والمعلم بطرس كرامة فاصطلحا لان فخر الدين بعث اليهما كيسًا بجانبًا كبيرًا من البنادق التي اتى بها

وكان فخر الدين يبالغ في اكرام تنكرد فتزيد ثقة الناس بكلامهِ مع انهم لم يروا في تنكرد شيئًا يدلُّ على ما كان فخر الدين يذيعهُ عنهُ . وكان تنكرد يميل الى العزلة طبعًا لكن فخر الدين اقنعهُ بان ذلك يغيظ الامراء والمشايخ فلا يليق بهِ الاَّ ان يقابلهم كلهم حسب عادات البلاد

وركب معهُ ذات يوم وخرجا للنزهة بموكب حافل ثم عادا الى القصر وكان غاصًّا بالزوار وقبل ان يترجل تنكرد عن جوادهِ ترجل فخر الدين وبادر اليهِ وامسك بركابهِ لكي يساعدهُ على النزول وهو يقول لهُ بالفرنسوية ان ذلك واجب عليَّ ويجب ان لا تمانع فيهِ لئلاَّ يغتاظ ضيوفي كلهم منك فزادت منزلة تنكرد في عيونهم اضعاف الاضعاف حينما رأوا اميرهم يمسك بركابهِ

كانت سورية من غزة الى الفرات مقسومة مقاطعات لكل مقاطعة امير او شيخ يحكمها فلما دخلها ابرهيم باشا حاول تنصيب والٍ واحد عليها فكانت النتيجة ان قام اهل لبنان عليهِ واضطروهُ الى ترك بلادهم سنة ١٨٤٠ . وفي لبنان خمس عشرة مقاطعة وعلى كل واحدة منها امير او شيخ كما تقدَّم لهُ الحكم المطلق في مصالح رعيتهِ وقد يكون من عائلة قديمة شهيرة تفوق عيال الامراء الاوربيين قدماً وشهرة . وهذا النظام قديم جدًّا في جبال سورية وقد بذلت الدولة العثمانية جهدها في ابطالهِ وارسال الحكام من قبلها فلم يستتبَّ لها ذلك الاَّ في السواحل

والشهابيون اشهر امراء لبنان وقد استتبَّ لهم الحكم على الجبل كلهِ وخضع لهم امراؤهُ ومشايخهُ . واشهر الشهابيين الامير بشير الذي حكم الجبل مدة غزوة ابرهيم باشا لهُ فلما تغلبت الدولة عليهِ سنة ١٨٤٠ عزلت الامير بشيرًا ونفتهُ هو واولادهُ

واراد الباب العالي ان يتولى ادارة الجبل ويضع فيهِ الخامية العثمانية فلم توافقهُ الدول الاوربية على ذلك. ودعي الامير قاسم شهاب لولاية الجبل وكان لبطريرك الموارنة سلطان عليهِ فاخذ في عزل مشايخ الدروز (المقاطعجية) فدعى ذلك الى الحرب الاهلية التي نشبت سنة ١٨٤١ فكانت حجَّة لفرنسا على انكلترا ان الباب العالي لا يستطيع ان يحكم جبل لبنان مع ان اللوم فيها لم يكن على الباب العالي اكثر مما كان على المسيو غيزو وزير فرنسا او اللورد بامرستون وزير انكلترا . لكن الانكليز كانوا يجهلون امور الجبل فظنوا ان الحق في جانب فرنسا وندموا على مساعدتهم للباب العالي

واراد الباب العالي ان يغتنم فرصة اختلاف هاتين الدولتين ويمكن قدمهُ في الجبل فلم تقبل الدول الاوربية بذلك وعُزِل الامير قاسم ولم يشأ الباب العالي ان يولي اميرًا آخر من الشهابيين ولا ارادت الدول الاوربية ان يكون الوالي من الاتراك . وتمَّ الاتفاق اخيرًا على ان يكون للجبل قائمقامان الواحد مسيحي يتولى امر الموارنة والثاني درزي يتولى امر الدروز . لكن سكان بعض المقاطعات ممتزجون من النصارى والدروز فوقع الخلاف في ضمهم الى هذا القائمقام او ذاك وحسبت انكلترا ان قسمة الجبل الى قسمين امرٌ سهل وهي تجهل ما لتاصيهِ من السلطة على اهاليهِ

ولما رأى الشهابيون هذا الاختلاف انحازوا كلهم الى الموارنة لانهم الفريق الاكبر في الجبل وبقي البعض منهم على دين الاسلام ولكنهم لم يكونوا محازبين للدروز واهتم اكليروس الموارنة بذلك وهو شديد السطوة في جبل لبنان

وكان الدروز من حزب الشهابيين قبل سنة ١٨٤١ وتألف مجلس من الشهابيين كان

يجتمع في دير القمر للنظر في مصالح الجبل وانضمّ اليهِ بعض الدروز . ثم نشأ حزب سورية الفتاة سنة ١٨٤٤ وانتشر اعضاؤهُ في مدن لبنان وقراهُ فاوجس الانكليز خيفة من ذلك ورضوا بقسمة الجبل الى قائمقاميتين ولما رأى الدروز انهم نالوا ما تمنوا تخوا عن النصارى وانف الشهابيون من تسلط الدروز عليهم في المقاطعات التي قائمقامها درزي

وتبرع بطريرك الموارنة بمئتي الف غرش لابتياع البنادق وكذلك رئيس دير مشمشة قائلين ان انفاق المال في ابتياع الاسلحة خير من تركها لينهبها الدروز . وتبرّع المطران طوبيا ببلغ كبير ولكنهُ عاد فاسترجعهُ واتى المطران يوسف الجزيني الى صيدا باموال كثيرة وقال للناس سرًّا أن لا بد من اعطاء حكم الجبل لامير من بيت شهاب لكنهُ ادعى جهارًا انهُ اتى لتفريق الصدقات

ونشبت الحرب الاهلية في شهر مايو من شهور سنة ١٨٤٥ فهاجم النصارى الدروز في اماكن مختلفة ولم ينالوا منهم مأربًا ثم عاد الدروز على النصارى ونكّلوا بهم وصعدت الجنود العثمانية الى الجبل بطلب الدول الاوربية لكن امراء دير القمر والاميرقيس شهاب ابلوا سيئ الدروز بلاء حسنًا . وكان فخر الدين حينئذٍ في قصرهِ فاسرع برجالهِ لنجدة الاميرقيس فوجد رجالهُ مكسورين وقد دارت الدائرة عليهم والجنود العثمانية توسطت بين الفريقين فادّعى انهُ جاء للتوسط ايضًا ونجح في استمالة قناصل الدول وجعل الباب العالي يعوض النصارى عمّا سلبهُ منهم الدروز وامضيت شروط الصلح بينهم وهي الشروط التي اشار اليها وهو يكلم حواء في القدس على ما تقدم

الفصل الثاني

الشيخ سعيد جنبلاط البطل المغوار اكبر مناصب الدروز راكب صهوة جوادهِ سائر الى قصر قنوبين ووراءهُ اربعة مشايخ من ابناء اعمامهِ اتوا معهُ من دارهِ في المختارة وهو شاب طويل القامة مجدول العضل على اكتافهِ برنس طويل وعلى رأسهِ عمامة بيضاء وهو بالهدّة الكاملة

واتى بعدهُ الفارسان الشهيران الشيخ ناصيف ابو نكد واخوهُ الشيخ محمود ابو نكد ومعهما عشرون رجلاً من اتباعهما مسلحين بالبنادق . وكان النكدية مشايخ دير القمر فلما اراد البطريرك ان يسلب الدروز التسلط على بلادهم هجموا على دير القمر بلدهم ونهبوها نكاية فيهِ ولما عقد الصلح وتعهد الدروز برد الاسلاب التي عندهم قال الشيخ ناصيف ان عندهُ خمس مئة طرطور اخذها من رأس خمس مئة امرأة

لكن هذه الامور نسيت الآن واجتمع الناس على الوئام والّف فخر الدين بين القلوب

او كاد . وكان بين الوفود الى قنوبين المطران نيقوديموس كاتم اسرار البطريرك وهو ممن لهم اليد الطولى في الحرب الماضية وكان معهُ شماس واحد لكن الجميع كانوا يجلون مقامهُ فلما وصل الى القصر بادروا الى تقبيل يديهِ اما اكرامًا لهُ او خوفًا منهُ لانهُ كان داهية كثير المشاكل والمشاغل يحوم هذا ويقطع ذاك ويفرض الفروض على من لا يطيع لهُ امرًا . وكان يميل الى بيت شهاب ويحب فخر الدين ويسعى في مصلحتهِ وهو الذي سعى في ارسال الاسقف مراد الى اوربا فكاد يلقي الفتنة بين وزير فرنسا ووزير انكلترا كما تقدَّم حتى اضطرَّ فخر الدين ان ينكر انهُ مرسل من قبلهِ

وتوالى وفود الفرسان على صخرات الجياد وبينهم الامير قيس والامير عبد الله شهاب والشيخ فرنسيس الخازن وغيرهم من زعماء سورية الفتاة . وجاء بعدهم بنو يزبك الذين بقوا خمس مئة سنة لا يسمحون بتقدُّم آل جنبلاط عليهم . والشيخ فاعور كنج الذي قاطع المزارنة بعد الحرب الاخيرة اما الآن فطارحهم السلام وتصايح مع بيت حبيش وبيت الدحداح ومع المعلم بطرس كرامة . ووفد ايضًا مشايخ بيت تلحوق وبيت عبد الملك وبيت الظاهر فامتلأ ميدان القصر بالصافنات الجياد وطبق الجو صهيل الخيل وجلس الامراء والمشايخ على البسط والارائك يدخنون التبغ ويشربون القهوة ومشى فخر الدين بينهم وعلى رأسهِ عمامة قوراء وعلى كتفيهِ جبة واسعة الاردان وكان يرحب بالدروز والموارنة على حدٍّ سوى وجلس مع الشيخ سعيد جنبلاط وحدَّثهُ طويلاً واكرم وفادة بني يزبك لكي لا يغاروا من بيت جنبلاط وقبل يد المطران نيقوديموس وارسل برجيلتهُ الى الامير احمد ارسلان فاقام الدروز

وكان تنكرد قد لبس لامة العيد وهي من المخمل وتنكب بندقية من اجود مصنوعات بودي من نوع الشخانة فاعجب بها الحضور وطلب الشيخ فرنسيس الخازن من الامير فخر الدين ان يكلمهُ ليريهِ لهم بها نمرًا من النمور التي كانت تحلق في الجو امامهم . واخذ فخر الدين البندقية واراها للشيخ فرنسيس وللحال اقترب منهُ الشيخ سعيد جنبلاط والامير قيس شهاب وبعض مشايخ بيت حبيش وبيت الدحداح وجعلوا يروزونها ويعجبون بصنعها وما منهم الاَّ من تمنى ان يكون عند بندقية مثلها . ونادى تنكرد خادميهِ ليريا الحضور جفتهُ وفرودهُ فاتيا بها واراهم اياها كأنها من سقط المتاع من غير ان يظهرا اقل اعجاب بها احتقارًا منها لامراء لبنان . فاغتاظ تنكرد منها واخذها منها وجعل يشرح لهم مزاياها بالقليل من الكلمات العربية التي تعلمها واذا وصل الى معنى تعذَّر عليهِ التعبير عنهُ بالعربية تكلم بالفرنسوية والامير فخر الدين يترجم لهُ ثم التفت الى الجو فرأى عقابًا كبيرًا محلقًا فيهِ فاطلق عليهِ بندقيتهُ واصابهُ فوقع امامهم

وهم بعجبون من مهارته في الرماية

ولما كان تنكرد يظهر دقة اصلحته كان يطرس كرامة يتكلم مع رفائيل فرح الدحداح فقال له ان هذا الامير اتى الى هنا ليرى ميل اهل الجبل الى بيت شهاب ولكنني سمعت امس في دير القمر ان قنصل الانكليز اقنع الملكة بان كل اهالي الجبل ضد بيت شهاب والبطرك في جملتهم . فاجابهُ رفائيل فرح ان هذا الكلام كذب والذي اشاعهُ الدروز لاغراض لا تخفى علينا . وسمعها الشيخ فرنسيس الخازن يتكلمان فقال لهما خلصنا من هذه السيرة فانهُ لم يبق دروز ولا موارنة بل الكل اخوة

رفائيل فرح — من قال ذلك وهل يقوم الجبل من غير الموارنة

الشيخ فرنسيس — نعم ولو كنا امة واحدة بدل ان نكون طوائف متعددة ما تغلَّب علينا ابرهيم باشا بل كنا غلبناهُ وفتحنا مصر

رفائيل فرح — ما شاء الله شيخ من بيت الخازن يتكلم ضد الموارنة يتكلم ضد طائفة لها مئة دير في الجبل

يطرس كرامة — ولها بطرك محترم في كل الدنيا

الشيخ فرنسيس — نعم وليس عندها قطعة سلاح

يطرس كرامة — نحن سلَّمنا اسلحتنا باختيارنا

رفائيل فرح — أقنعونا حتى سلمناها

الشيخ فرنسيس — من اقنعنا هؤلاء الرهبان الذين تفتخر بهم

يطرس كرامة — عفوك انا انا فما سلمت اسلحتي وعندي الآن اسلحة تخالف اسلحة كل الدروز

الشيخ فرنسيس — مالك وهذا الكلام فهو يغيظ الامير فخر الدين

المطران تيقوديوس — ويغيظني انا ايضاً وكلنا الآن اخوة وهذه ارادة سيدنا البطرك لا نصارى ولا دروز بل الكل اخوة

ثم قرعت الطبول علامة الخروج للصيد وخرج الامراء والمشايخ واعتلوا جيادهم وهم نحو اربع مئة فارس واربع مئة راجل وكان معهم قائمقام النصارى الامير حيدر شهاب وقائمقام الدروز الامير احمد ارسلان . ولما نزلوا عن الاكمة التي عليها القصر وبلغوا السهل المنبسط تحتها اخذوا يتسابقون ويرشقون الرماح ثم انقسموا ثلاث فرق ودخلوا حرجة كبيرة من اشجار السنديان ممتدة من طرف السهل ومنبسطة على سفح الجبل الذي يليهِ وصاعدة فيهِ

الى اعلاهُ . ومضت ساعات عديدة وانت لا تسمع الاَّ اطلاق البنادق ونباح الكلاب . ثم اخذ الناس يخرجون من الحراج ويسيرون نحو القصر وحداناً ثم زرافات واخيرًا اقبل المشاة يحملون ما اصطادهُ الفرسان وهو خمسة وعشرون غزالاً وضبعٌ وكثير من الطيور وجاء الفرسان وراءهم يتمايلون على صهوات خيولهم كأنهم سكارى ولما توسطوا السهل جعلوا يمرحون فيهِ ويجتمعون ويفترقون وهم ينشدون الاناشيد الحماسية ويلعبون بالرماح . والخيول تتهادى تحتهم كالعرائس الى ان بلغوا الاكمة التي عليها القصر

وكان مطبخ الامير كبيرًا جدًّا فيهِ حفر كثيرة لشي الذبائح فاقبل الصيادون على الغزلان ينظفون احشاءها ويشوونها وجلس الامراء والمشايخ على بسطهم يدخنون التبغ الى ان صلح الشواء

ثم مُدَّت الاسمطة وجلس حولها الامراء والمشايخ على هذا النمط حول السماط الاول القائمقامان وتنكرد والمطران نيقوديموس ثم الشيخ سعيد جنبلاط ورئيس بيت يزبك ثم التلاحقة وبيت عبد الملك والنكدية وخمسة من مشائخ الموارنة . وعلى السماط الثاني فخر الدين ومعهُ الشهابيون وبيت حبيش وبيت الدحداح . وجلس بقية المشايخ حول بقية الاسمطة في الدار والرواق الذي حولها . ولم تكن تسمع الاَّ صوت تقطيع اللحم وتعريق العظم ومضغ الطعام اما الحديث فلا محل لهُ هناك لان الانسان إما ان يأكل وإما ان يتكلم ولا يحسن الاثنين في وقت واحد. ومن خالف هذا النظام يُلبي بسوء الهضم ولذلك ترى اكثر الاوربيين يشغلون ادمغتهم وهم ياكلون فتتلبك معدهم حتى لا تستطيع هضم الطعام . ويقال ان جلوس النساء على موائد الطعام مع الرجال هو الذي يدعو الى التنافس في الحديث وما ينتج عنهُ من التخم

وكان في وسط كل سماط صدر كبير من الارز المفلفل عليهِ غزال تحيط بهِ الحجال ودجاج الارض مما صادهُ البزاة وكلها مشوية محمَّرة

ولما اكلوا وطابت نفوسهم همس بطرس كرامة في اذن جاره رفائيل فرح وقال ارى الآن ان الاتفاق ممكن . فقال لهُ رفائيل فرح نعم ولماذا لا يمكن ذلك الم يكن على الجبل حاكم واحد قبل الآن فاذا كانت الدول تقبل بتسليم الحكومة لواحد من بيت شهاب وكان يجمعنا مرارًا هنا كما نحن مجتمعون الآن زالت من بيننا الضغائن والاحقاد

بطرس كرامة — اتريد ان اخفع لمحمود ابي نكد

رفائيل فرح — مَن قال ذلك بعد ان حرق الادبرة

بطرس كرامة — وخرب خمس مئة طرطور

فرنسيس الخازن — ولكن هَبْ انهُ يردها لاصحابها

رفائيل فرح — اذا ردها انقضى الخلاف

بطرس كرامة — لا ينتهي الخلاف ما دام هذا الرجل حيًّا

ولما فرغ الضيوف من الطعام شكروا الله ونهضوا وجلسوا على الدواوين فجاءهم الخدم بالاباريق والطسوت فغسلوا ايديهم ثم جاؤوهم بالشبقات ودار الحديث بينهم وكان موضوعهُ الصيد والقنص وما فعلوهُ ذلك اليوم وسأل الشيخ جنبلاط تنكرد عمَّا اذا كان في بلادهِ ضباع وقصَّ المطران نيقوديموس عليهم قصصًا كثيرة جرت في ايام الامير بشير حينما كان يخرج للصيد من بيت الدين واستطرد الكلام الى ما كان في تلك الايام من العز والجاه يوم كان على الجبل والٍ واحد

واخذ فريمن وترومن قطعة كبيرة من اللحم المشوي وجلسا تحت شجرة يأكلان منها . وقال فريمن ان الذي يعجبني هو ان هؤلاء الناس يحسبون انفسهم نصارى وهم يعشون بالعاشر من سمع ان النصارى يعشون

ترومن — ويأكلون باصابعهم لا سكين ولا شوكة

فريمن — يقال من سافر كثيرًا رأى العجب

ترومن — ورأى المشاق وانا ليس اصعب عليَّ من انا لا نأكل في وقت معين

فريمن — ولكن هذا الاكل ليس بطالاً وهم يسمونهُ غزالاً . ولا ادري ما يقولون في بلامنت اذا قلنا لهم اننا اكلنا لحم الغزال

ترومن — نحن الآن هنا ليس في بلامنت . وهذا الامير امير بالحق وانا مسرور ان سيدنا صادقهُ لان صداقتهُ افضل من صداقة القسوس والرهبان

ولما خيم الليل قلت الضوضاء وفك كل احد عمامتهُ او منطقتهُ وفرشها ونام عليها . واوى الامراء والمشايخ الى غرف القصر او ناموا في اروقتهِ ودام الحال على هذا المنوال ثلاثة ايام متوالية . ولما لم يبقَ لفخر الدين غرفة ينام فيها طلب من تنكرد ان يقبلهُ ضيفًا عليهِ لينام في غرفهِ

الفصل الثالث

تنكرد مخاطبًا فخر الدين — كان هذا اليوم يومًا مشهودًا لا يُنسى ابد الدهر

فخر الدين — نعم وما رأيك في هؤلاء الرجال أيستطيعون ان يغلبوا العالم

تنكرد — غلبة العالم لا يكفي لها وجود الرجال بل لا بدَّ لهم من غرض يسعون اليهِ

فخر الدين — الغرض موجود

تنكرد — هل يعرفونهُ

فخر الدين — عرّفهم بهِ

تنكرد — لا ادري كيف نستطيع ذلك

فخر الدين — الم يكن العرب عبدة اصنام ومع ذلك خرجوا من بلادهم يذيعون دين التوحيد فانت ترى ان كل شيء مستطاع

تنكرد — نعم وانا لم ازل على رأيي الاول وهو ان الثورة يجب ان تبتدئ من بلاد العرب . فان البدو بمعزل عن سقطات الحضر وهم الآن كما كانوا في عصر محمد وموسى وابرهيم اهل ورع وتقى لا حيف عندهم ولا عتوّ

فخر الدين — ولكن انا من العرب وكل المقاطعجية من العرب وما منهم احد الاَّ وهو ينتسب الى عرب نجد او عرب الحجاز او عرب اليمن . وفي الجبل خمسون الف بندقية ورجالهُ ابطال اشدّاء وهم اهل زهد وتقشف الدرزي منهم يعيش على الخبز والزيتون وينام على التراب

تنكرد — ولكنهم لم يفعلوا شيئاً حتى الآن اما العرب ففعلوا

فخر الدين — نعم لم نفعل شيئاً لان ليس عندنا فرسان واعداؤنا يستعينون علينا بفرسان العرب ولكننا حافظنا على بلادنا . والآن صار العرب معنا لان الشيخ مالكاً ينجدنا بفرسانهِ ولهُ الحول والطول في كل بلاد العرب فيأتينا بالفرسان من نجد والحجاز واليمن وعمان والبحرين يأتينا بخمسين ألف فارس اذا اردنا

تنكرد — هذا كلهُ حسن ولكنهُ لا يكفي ولا بدَّ لي من رؤية مدن الشام والعراق لارى أيتها يلزم لها مدافع وايتها تفتح بغير المدافع ثم يجب ان لا تنسى بر الاناطول اسيا الصغرى أخصب ارض الله فان الاتراك قد يهاجمون لبنان من الشمال ونحن ذاهبون الى الجنوب والشرق . وقد رأيت قومك ورجالك وانا اقدركم قدركم ولكن من يحمي اسيا الصغرى ومن يحفظ معابر الشمال وعلى من نعتمد بين طرابلس وانطاكية وبين حلب وادنة

وفهم فخر الدين مراد تنكرد وكان مخلصاً في قولهِ راضياً ان يترك قصرهُ وبساتينهُ وما فيها من رغد العيش ويشتبك في الحروب والمعامع لكي يقيم في اسيا مملكة شعارها العدل واساسها الاخاء وكانت نفسهُ كبيرة فيهِ وهي تدفعهُ الى العمل وتمنعهُ من الصبر على عيشة الكسل وتزين لهُ ان يدهش اوربا كلها بانعالهِ ولم يكن قصرهُ ليشبع مطامعهُ وما تطمح اليهِ نفسهُ ولذلك كنت تراهُ قلقاً ضجوراً . ولم يكن يحب الفخر والمباهاة ولا كان يحب للمخاطر حساباً

وكان قد استغرق في الديون ولكن هذه الديون كانت تشحذ ذهنهُ وتقوي عزيمتهُ ولا سيما اذا قابل مداينيهِ وحاول التغلُّب عليهم بالحيلة

ومن اعجب العجب ان ترى شابًّا مثل لورد متكيوت نبيل المطالب ثابت العزيمة يصادق رجلاً متقلبًا مع الاهواء مثل فخر الدين . لكن فخر الدين كان زكي الفؤاد سريع الخاطر قلبهُ خاضع لمشاعرهِ فاذا ارضيت مشاعرهُ ملكتَ قلبهُ . لم يكن يعرف المبادئ الادبية المجردة ولكنهُ كان يرى الفضائل ويعرف قيمتها لانها تؤثر فيهِ تأثيرًا عميقًا ولذلك فعلت بهِ آداب تنكرد فعل المغنطيس بالحديد ووجَّهتهُ وجهة معلومة

الفصل الرابع

تنكرد يخاطب باروني — اتعرف شيئًا عن قوم يقال لهم التصيرية

باروني — كلاَّ لا اعرف عنهم شيئًا ولا احد يعرف عنهم شيئًا غير انهم رجال حرب غلبوا المصريين ولما رأى ابرهيم باشا ذلك منهم حشا مدافعهُ بالدراهم ورشقهم بها فصاروا من اعز انصارهِ

تنكرد — أمسلمون هم

باروني — كلاَّ لا مسلمون ولا نصارى ولا دروز ولا يهود ولا مجوس

تنكرد — من اي الاقوام هم . أعرب هم

باروني — كلاَّ ولم ارَ الاَّ واحدًا منهم وشكلهُ يدل على ان اصلهم يونان او ارمن

تنكرد — اين رأيتهُ

باروني — في دمشق فانهُ حدث فيها مرةً خصام وهجم المتخاصمون على واحد يريدون قتلهُ فانقذهُ الصيدوني من يدهم ووجدناهُ نصيريًّا لابسًا زي البدو وهم يتزيون بكل الازياء ولهم جواسيس في كل المدن ويتكلمون العربية ولكن لهم لغة خاصة بهم

تنكرد — لماذا لم تمضوا الى بلادهم

باروني — لان الطاعون كان فاشيًا حينئذٍ ولم يكونوا يسمحون لاحد ان يدخل بلادهم

تنكرد — هل رأيتَ هذا الرجل مرةً اخرى

باروني — نعم رأيتهُ في دمشق واسمهُ دركوش وهو يبيع العقاقير الطبية

والذي دعا تنكرد الى هذه المسائل هو انهُ كان جالسًا في اليوم السابق مع فخر الدين والشيخ حمود ابي نكد ودار الحديث بينهم على الثورة فقال الشيخ حمود اني حاربت مع الامير بشير وركبت مع الامير يوسف لمحاربة الجزار ولكنني اقول الصدق ان طريق بلادنا ليست من هنا بل من جهات الشمال . وهذا القول سمعتهُ من الامير بشير نفسهِ مرارًا كثيرة ومن الامير

يوسف ايضاً وقد نطمح في اقامة امير واحد علينا وننضم كلنا تحت رايته ولكن الاتراك يدخلون بلادنا من الشمال وقتما يريدون فلا نقوم لنا قائمة

تنكرد — ويد من تلك الطريق ايها الشيخ المحترم

الشيخ حمود — يد هؤلاء الابالسة النصيرية ولا يصيبنا شر الاّ منهم

فخر الدين — ولا امل لنا باسترضائهم لانهم يكرهون الشهابيين ولو نصروا الامير بشيراً لغلب بهم الباب العالي ووالي مصر

الشيخ حمود — عندهم خمسة وعشرون الف محارب واذا انضمّ اليهم التركمان والاكراد لم يقف احد في وجههم

فخر الدين — ومن العجب العجاب اني ذهبت الى حلب وانطاكية مراراً ولم ادخل بلاد النصيرية لان الناس كانوا يحذرونني منها وتحذيرهم لي كان يجب ان يغريني بدخولها ولكني لم ادخلها لانني اكرههم واخاف منهم لغير سبب واظن ان التي ارضعتني بثّت في قلبي كراهتهم او انني اكرههم لانني اعلم انهم يكرهون الشهابيين وكان عمي الامير بشير يبغضهم ويشتمهم علانيةً

الشيخ حمود — ولكنهُ بذل جهدهُ هو والامير يوسف في استرضائهم

تنكرد — اتظن اذاً ايها الشيخ انهُ لا امل باستقلال سورية من غير مساعدة النصيرية

الشيخ حمود — اذا ساعدنا النصيرية وامنّا جانب البدو لم نخف من الترك ولا من المصريين

فخر الدين — ويصير يمكننا ان نفتح الحرب عليهم

الشيخ حمود — دعهم يتركونا وشانا وهذا يكفينا

فخر الدين — انظر هذا الغزال ما قولك لو طاردناهُ وبقينا نطاردهُ حتى نصل الى بلاد النصيرية

الشيخ حمود — بلادهم بعيدة من هنا ولا غرض لي بدخول بلاد تحكمها امرأة

تنكرد — تحكمها امرأة ! أصحيح ذلك

الشيخ حمود — كذا يقال

فخر الدين — هذه اشاعة ولكن المحقق ان النصيرية يعبدون امرأة

الفصل الخامس

أقدم مدينة في العالم خالية من الآثار القديمة . غليت وغُلبتْ قهرت وقُهرتْ لكن لم يبقَ فيها اثرٌ للغلب ولا للانقلاب لا عمود ولا قنطرة . انشئت فيها الهياكل ونصبت فيها التماثيل ولكن لم يبقَ منها اثر . أين قصورها اين معبودها اين دور القضاء ومجالس العلم خرّب كل شيء وبني غيرهُ بانقاضه

يقول الناس ان مدينة لندن هي بابل الحديثة ومدينة باريس تماثل رومية القديمة ولكن ما قولهم في دمشق فانها كانت مدينة عظيمة لما كلم الله ابرهيم ومن ثم انتابها الملوك والغزاة الاراميون واليونان والرومان والعرب والترك والترك مروا بها كالظل الزائل وهي باقية على مر الدهور مملوءة من السكان والغنى والرغد . هذه مدينة شاب الدهر ولم تشب وقدمت الايام ولم تقدم . شربت اكسير الشباب فبقيت سيفة عنفوانه وهي منفردة في ذلك لا مثيل لها في المسكونة درة بين الزمرد

هذه دمشق التي سكنها ابرهيم الخليل تحدق بها الحدائق وتخللها الانهار فترى ماءها يترقرق في جداولها وفساقيها ودورها وشوارعها فيسمع خريرهُ في كل بستان وبيت وترى جداولهُ في كل دار وسوق . ولكن المياه كانت كثيرة في طيبة ونينوى وبابل . وما بردى باغزر ماء من النيل ودجلة والفرات ولم تلقَ هذه الانهار العواصم التي كانت عليها

حدثت الامور التالية بدمشق في غرفة كبيرة مستطيلة سقفها منقوش نقشاً لا مثيل لهُ الاَّ في قصور ملوك الاندلس او مماليك مصر قائم على اعمدة من الرخام الابيض تيجانها كسعوف النخل بينها وبين الجدران رواق طويل نصبت فيهِ الارائك من الحرير الاخضر المطرز بالذهب وعلى الجدران مجوف حاكها امهر صناع مونخ . والارض مرصوفة من قطع الرخام في اشكال بديعة لا يرى منها الاَّ الشيء القليل بين بساط وآخر . والبسط باهية النقوش والالوان من الفرما صنعهُ اهل خراسان . وفي الغرفة آنية وتحف كثيرة من مصنوعات المشرق والمغرب موائد من الهند وصحاف من الصين وكؤوس من العقيق مملوءة بالازهار . وكوى الغرفة تطل على حديقة غناء باسقة الادواح مخضرة الخمائل مدبجة الازهار يترقرق الماء على حصبائها ويتدفق من فساقي صغيرة مبثوثة في جوانبها متصلة كلها بفسقية كبيرة في وسطها قام حولها اربعة تماثيل من المرمر الاسود تصب الماء من اربعة ابواق لؤلئية في حوض من الزبرجد

وكان في هذه الغرفة حينئذٍ اناس كثيرون اكثرهم زوار ورب المنزل وهو كهل طويل القامة مهيب الطلعة . هذا هو ادم بسو التاجر الشهير الذي رأيناهُ في القدس الشريف . على رأسهِ وكتفيهِ شال من الكشمير الدقيق وضعهُ التاجر الذي اتاهُ بهِ في قلب رمانة . وفي منطقتهِ خنجر قرابهُ من المينا ومقبضهُ مرصع بججارة الماس حتى لا يبين منهُ شيء غيرها . والى جانب بسو رجل قصير القامة نحيف البنية لابس ثيابًا اوربية رسمية تدلُّ على انهُ فنصل لدولة من الدول الكبرى معانهُ يحلق شعر رأسهِ ويلبس طربوشًا من غير عمة واسمهُ السنيور الياس لورلاَّ . وهو تاجر يهودي من تجار دمشق اقامتهُ دولة النمسا فنصل شرف لها . رجل مشهور في التجارة

والسياسة لهُ ابنتان من اجمل بنات المشرق تعلمتا في ازمير ومرسيليا فانقلب رأسهما وعادتا تحتقران عادات الشام وازيائهُ وتلبسان الثياب الاوربية من آخر زي ومن اشهر زي مع ان اباهما لا يلبس الثياب الاوربية الاَّ في الحفلات الرسمية ولا احد يلبس مثلهما من كل بنات اعمامهما

هذه اول مرة زارتا فيها بيت بسو لانهما عادتا من مرسيليا في اول السنة ولم يأتِ بسو الى دمشق الاَّ في اواسط الصيف وكانتا تعرفان صاحب البيت بشهرتهِ وانهُ فخر اليهود في المشرق ولكنهما كانتا تحتقران قومهما وتفضلان ان لا تحسبا من اليهود وكانت الكبرى منهما تجاهر بذلك امام اهلها ولا تخجل واما اختها فكانت تقول انهُ يجب على اليهود ان يمتزجوا بالناس اكثر فاكثر حتى يعرفهم الناس فلا يعودوا يكرهونهم وعليهم ايضاً ان يتمثلوا بالناس الذين يسكنون بينهم في كل شيء حتى لا يبقى ما يميزهم عن غيرهم ولا يبقى الاَّ فرق الدين وهذا لا ينظر اليهِ بين الاقوام المتمدنين . ولما دخلت هاتان الابنتان بيت بسو اضطرتا ان تخفضا من عجبهما ولاسيما لما قُدِّمتا الى رب المنزل ورأتا جلالة قدرهِ ثم قُدِّمتا الى حواء ورأتا جمالاً يفوق الوصف وطلعة تسبي العقول وحلَّة وحلًى تبهر العيون

ومدام لورلاً ام هاتين الابنتين تصف من بنات ازمير كانت موصوفة بجمالها ولم تزل عليها لمحة من الجمال لولا كثرة ما على رأسها من الحلى والجواهر فانها تفوق في ذلك كل سيدة سواها ولم تكتفِ بحجارة الماس بل وضعت بينها حجارة كبيرة من الزمرُّد والياقوت وصمموطاً طويلة من اللؤلؤ وكأنَّ جسمها كلهُ في غلالة من الجواهر لكنها كانت جالسة على مقعدها كالصنم لا همَّ لها الاَّ النظر في حلى غيرها ومقابلتها بحلاها

وكان هناك شاب طويل القامة جميل المنظر لابسًا لباسًا شرقيًّا يمشي بين الحضور يكلم هذا ويمازح ذاك ويهز كتفيهِ كأن الدنيا برغشة سيفه عينيهِ . هذا هلال بسو خطيب حواء ابن بسو الحلبي . ذهب الى الاستانة واقام مدة سنين بيرا وزار السفراء ولكنهُ لم يعد يحتقرًا لعادات بلادهِ كما عادت بنتا لورلاً ولم يكن يستحي بشعبهِ ولا بديانتهِ ولم يكن متعصبًا لانهُ قرأ فولتير . وكان يصغي الى حواء حينما تتكلم ويصادق على ما تقولهُ من ان شعب اليهود يفوق الشعوب كلها ويتأوَّهُ حينما تحنُّ الى الايام التي يعود فيها تجد آبائهم . ثم يهمس في اذن من يراهُ بجانبهِ قائلاً لا اظن اننا كنا في وقت من الاوقات ارفهُ حالاً وانعم بالاً منَّا الآن

ودنا من ابنة لورلاً الكبرى ليكلمها فلم تكد تتنازل للكلام معهُ اولاً ثم لما علمت انهُ من بيت بسو ورأتهُ قابل السفراء في الاستانة ونساء السفراء قامت اجلالاً لهُ وخاضت معهُ في الحديث. اما بقية النساء الحاضرات فلم يكنَّ يتكلمن الاَّ نادرًا كأنَّ الكلام ليس من لوازم الجمعيات

العمومية وان تكلمن فعن حلاهن وحلى غيرهن. وكان هناك مراد فارحي ونسيم فارحي وموسى لورلا وزوجتهُ وهما من نخبة اهالي دمشق ومن اكرم الناس كما يعلم كل من زار دمشق وكان موسى لورلا وكيلاً لاخيهِ (قيس قنصل) . اما نسيم فارحي واخوهُ فلم يكونا قنصلين ولكنهما من كبار التجار وقد تزوجا باختين من بنات عمهما فمدام مراد فارحي في اوج مجدها وزهرة جمالها لكنها كانت خجولة منكسرة الطرف واما اختها مدام نسيم فكانت اشدّ منها تياهةً وذكاءً وغيرةً على شعبها واعجاباً بحواء . وهي طويلة القد ممشوقة القوام يتدفق الجمال من وجهها والذكاء من جبينها

وكان هناك امرأة سمينة مترهلة زوجها قنصل ولكنهُ ليس قنصلاً جنرالاً مثل لورلا تنظر اليها فتظنها صنماً من اصنام الصين وهي بشوشة الوجه كثيرة التبسّم برّاقة العينين

وكان في الغرفة ايضاً ثلاثة اولاد او اربعة كأنهم الملائكة في جمالهم وخفة ارواحهم وابنة يصل شعرها الى الارض . اما الاولاد فكانوا كثيري اللعب والحركة لا يقر لهم قرار يدنون من بسّو وهو يتكلم ويشدون بطرف جبتهِ غير هائبين ثم يسرعون الى امهم او حواء يقبلونها او يدنون من المرأة السمينة و ينفرسون في وجهها ويضحكون. هؤلاء اولاد اخت هلال يسوأتي بهم الى دمشق لتغيير الهواء وامهم معهم وهي جالسة بجانب حواء ترقب اولادها بعينين زرقاوين وتشير اليهم بيدها لكي يلزموا السكينة

وكان الرجال واقفين اكثر الوقت يتحدثون كانهم في مجمع التجار (البورصة) ثم دخل من الغرف التي الى جانب هذه الغرفة خدم يحملون سلة كبيرة من الفضة مملوّة بسعوف النخل الصغيرة تتخالها اغصان الآس ودخل بعدهم خدم آخرون يحملون سلة كبيرة من الذهب فيها ثمار الليمون وجعل الخدم يطوفون على الحضور فيأخذ كلٌ منهم سعف نخل بيمينهِ وليمونة بيسارهِ. ثم رفع رب المنزل سعف النخل يدوح كه وللحال بادرت حواء اليهِ وكانت لابسة حلة من الحرير الابيض مزررة بازرار من فصوص الماس الكبيرة ومتمنطقة بمنطقة مغطاة باللؤلؤ وفوق المنطقة صدرة من المخمل الاحمر مزركشة بالقصب والحجارة الكريمة وفوق ذلك شال من صنع الهند عليهِ تطريز بديع بخيوط الذهب والجواهر . وعلى رأسها عراقية مثل العراقية التي كانت عليهِ في بيت عنيا لكنها كانت الآن مغطاة بحجارة الماس بدل اللؤلؤ

ولما دنت من ابيها قال لها لا اظنهم يأتون فعلى مَ ننتظرهم

حواء — لا بدّ من مجيئهم يا ابي وقبل ان اتمت كلامها دخل الخدم ومعهم ضيفان جديدان تنكرد والامير فخر الدين

(ستأتي البقية)